

الفصل: الرابع

وحدة: تاريخ أوروبا في القرنين 19 و 20

الأستاذة: محمد حبيدة

المحاضرة رقم: 5

السنة الجامعية

2021-2020

جامعة ابن طفيل	السنة الجامعية: 2021-2020
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	وحدة: تاريخ أوروبا في القرنين 19 و20
شعبة التاريخ والحضارة	الأستاذ: محمد حبيدة
الفصل الرابع	المحاضرة رقم: 5

الطَّرْف الأَغْر (Trafalgar) 1805

أدت الصراعات بين فرنسا وبريطانيا إلى نقض معاهدة أميان، ودخول الطرفين في حرب ملاحية جنوب إسبانيا، بين مدينتي قادس وطريفة، على مقربة من مضيق جبل طارق. كان الأسطول الفرنسي، بقيادة الأدميرال فيلنوف (Villeneuve)، الذي انضمت إليه البحرية الإسبانية، يتوفر على 33 سفينة حربية، بينما لم يكن للأسطول البريطاني سوى 27 بارجة. لكن بالمقابل، كانت البحرية الملكية البريطانية تتوفر على تجربة كبيرة في مجال الحروب الملاحية. كانت خطة نابوليون، بالقياس إلى هذا التفوق العددي، تقضي بالهجوم على إنجلترا وإخضاعها لسلطته، غير أن القدرة التكتيكية البريطانية تفوقت كثيرا على هذه الخطة، إذ تم استدراج الأسطول الفرنسي إلى جنوب إسبانيا، ومباغتته، وتدمير نصف سفنه، وذلك يوم 21 أكتوبر 1805، في حين لم يفقد الأسطول البريطاني، بقيادة الأدميرال نيلسون (Nelson) الذي مات في المعركة، ولو سفينة حربية واحدة.

وبالاستناد إلى وثائق البحرية الفرنسية، يتبيّن إلى أي حد لم يستسغ نابوليون هذه الهزيمة، إذ عمل ما بوسعه لطمس ذكرها على لسان الصحافة الفرنسية. عقب الهزيمة، لما كان على أبواب مدينة فيينا قال لوزير البحرية: "على الصحف ألاّ تتكلم عن معركة الطرف الأغر.. فالأمر يتعلق بمعركة طائشة عدّبتنا فيها العاصفة أكثر مما قهرنا فيها العدو". ودفعت هذه الهزيمة نابوليون إلى إعادة النظر في البحرية الفرنسية، بالعمل على تطويرها. فقد أمر بالاستمرار في بناء السفن، وتحسين الموانئ، وإنشاء مدارس خاصة للتكوين في ميدان الملاحة العسكرية في مدينتي بريست بالشمال الغربي على المحيط الأطلنطي، وتولون بالجنوب على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

من الجانب البريطاني، ألّف المؤرخون والسياسيون والأدباء الكثير عن هذه المعركة. لكن الإنجليز، الذين احتفلوا بهذا النصر احتفالا كبيرا عام 1905 بمناسبة مرور مائة سنة على الحدث، وحتى عام 2005 بحضور الملكة إليزابيث الثانية في استعراض ملاحى كبير، غالبا ما يستحضرون هذا الحدث بالاحتفاء بلوحة زيتية من الحجم الكبير كان قد رسمها وليام براسي هُول في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تمثل موت الأدميرال نيلسون في المعركة وتخلد ذكره باعتباره "بطلا من أبطال البحرية الملكية"، ليس فقط في أعين البريطانيين، بل حتى بالنسبة

للفرنسيين، كما جاء في التقرير الذي رفعه القبطان لوكاس إلى وزير الملاحة والمستعمرات الفرنسي دونيس ديكريس.

كان من نتائج "كارثة الطرف الأغر"، كما يقول المؤرخون الفرنسيون، أن عجزت فرنسا عن اللحاق بـ "البحرية الملكية" البريطانية، على الرغم من جهود نابوليون الملاحية، فخضعت السواحل الفرنسية لحصار من طرف سفن بريطانيا، مما أضر كثيرا بالتجارة الملاحية الفرنسية، وأجبر نابوليون على الانحصر داخل القارة. أما بريطانيا، فأكدت سيادتها الكاملة على البحار والمحيطات، باعتبارها أقوى أمة ملاحية في أوروبا، وفي العالم بأسره طيلة القرن التاسع عشر. هذا ما دفع الكثير من الباحثين، وفي مقدمتهم الباحث البريطاني رُوي أدكينس، إلى القول بأن هذه المعركة كانت فاصلة في الناحية التاريخية، بل إنها "غيرت وجه العالم".

ويعقد عدد من المؤرخون مقارنة بين معركتي الطرف الأغر وواتيرلو اللتين انهزم فيهما نابوليون، الأولى في البحر والثانية في البر. فكلاهما كانت أمام بريطانيا، وكلاهما كرسنا هيمنة هذه الأخيرة على البحر والبر على السواء. ومن أهم الدراسات التي سارت في هذا الاتجاه تلك التي قام بها روي مائين عام 1955، ونعت فيها الطرف الأغر بـ "واتيرلو الملاحية"، التي كانت آخر أكبر معركة بحرية تقام بالأشعة، ذلك أن الحروب الملاحية تطورت بعد ذلك تطورا كبيرا.

احتلال ألمانيا 1806-1807

عقب هزيمة الطرف الأغر، وجه نابوليون أنظاره من جديد إلى القارة، ولاسيما جهة ألمانيا وأوروبا الوسطى. فقد جهز جيشا جرّارا وتقدّم به نحو أوستيرليز (ببلاد تشيكيا الحالية) لتكسير التحالف النمساوي الروسي المدعوم من طرف بريطانيا. هذا ما يعرف في تاريخ أوروبا بـ "معركة الأباطرة الثلاثة" (نابوليون إمبراطور فرنسا، وفرانسوا الثاني إمبراطور النمسا، والإسكندر الأول إمبراطور روسيا) التي جرت أطوارها يوم 2 دجنبر 1805. وقد ترتب عن ذلك اقتحام الجيش الفرنسي لمدينة فيينا عاصمة النمسا، ووضع حد للإمبراطورية الجرمانية المقدسة التي كانت النمسا على رأسها، والسيطرة على أراضيها في ألمانيا وإيطاليا.

ركز نابوليون جهوده على ألمانيا، ومحاربة بريطانيا اقتصاديا، بفرض حصار تجاري عليها، إذ منع على البلدان الأوروبية الخاضعة له من التعامل التجاري معها، خاصة وأنه كان يتحكم في موانئ بحر البلطيق الكبرى مثل هامبورغ وبريمن ولوبيك نتيجة الفوز في معركة أوستيرليز. وكان من نتائج هذا الحصار المعروف تاريخيا بـ "الحصار القاري" (Blocus continental):

- ركود التجارة في بريطانيا
- ركود المعاملات البنكية
- ركود الصناعة

كانت ألمانيا في بداية القرن التاسع عشر مشتتة إلى إمارات ومناطق مستقلة بعضها عن بعض، لدرجة أن الفرنسيين كانوا يتحدثون عن ألمانيا بصيغة الجمع (Les Allemagnes). ومن أهم هذه الإمارات والمناطق: بروسيا، وبافاريا، وريانيا، وويسفاليا، والساكس، والتي لم تعرف الوحدة السياسية إلا مع بيسمارك عام 1871. لكن، رغم هذا الشتات، اشترك الألمان منذ القرن السادس عشر، قرن النهضة والإصلاح الديني، في اللغة (الألمانية)، وفي قيم كثيرة، في طليعتها المذهب البروتستانتي (اللوثيرية) وإعمال العقل والابتكار والتجديد. وهذه القيم هي التي أهلتهم لَلعب أدوار طلائعية في وقت لاحق.

في مرحلة أولى، سيطر جيش نابليون على مجموعة من المناطق، خاصة منطقة بافاريا، وعاصمتها ميونيخ، ثم في مرحلة ثانية هجم على مملكة بروسيا (La Prusse) في الجهة الشرقية على الحدود مع بولندا. في البداية، قاوم ملك بروسيا فريديريك غليوم الثالث المد النابوليوني، لكن الفوز كان من نصيب فرنسا، إذ سحق جيش نابليون جيش فريديريك في 14 أكتوبر 1806. وفي 27 من نفس الشهر دخل نابليون مدينة برلين.

وكان من الإجراءات التي اتخذها نابليون منع التجارة مع بريطانيا، في إطار الحصار القاري الذي انضمت إليه البلدان الإسكندنافية. فما عجز عنه نابليون في صراعه مع بريطانيا عسكريا، عوّضه اقتصاديا. ومن جهة أخرى، عمل نابليون على إعادة هيكلة خريطة أوروبا، إذ جمع شتات بولندا حول إمارة فارسوفيا، وجعل من بلجيكا بلدا قائما بذاته بعدما كان جزءاً من أراضي هولندا. لكن أثر نابليون يظهر أكثر في ألمانيا، حيث عرفت تغيرات ترابية شاملة، وحيث نما شعورها القومي على مدى القرن التاسع عشر (الوحدة الألمانية 1871) على غرار ما حصل في بلدان أخرى التي نهضت فيها قوميات كثيرة. فقد جمع ألمانيا في 39 إقليما بعدما كانت مشتتة في 350 إقليم، حيث قضى على ما يعرف بـ "الإمبراطورية الجرمانية المقدسة" وتعويضها بـ "كونفيدرالية الراين" التي صارت تحت "الحماية الفرنسية"، وفرض على البلاد مدوّنته القانونية التي عوضت القوانين المتعددة التي كانت تسود في مختلف الأرجاء، تحت مسمى "القانون الريناني"، كما يقول ميشال كيروتريت في دراسة تحت عنوان "إمارات ألمانيا تحت حكم نابليون". ورغم كل شيء، فإن بروسيا استفادت كثيرا من هذه الهيكلة الترابية الجديدة، إذ ضمت إليها عددا من الإمارات الصغيرة التي ظهرت عليها البصمة القانونية الفرنسية،

وحفرت بورجوازيتها وأرستقراطيتها المستنيرة على الاستثمار في العلم والصناعة، مما أهلها لتكون فيما بعد على رأس ألمانيا برمتها.

كان الألمان، الذين عانوا من الشتات السياسي، معجبين بالدولة القومية الفرنسية وبعظمة هذه الدولة التي جسدها نابوليون. الألمان الذي عرفوا البروتستانتية مع لوثر، وعرفوا التنوير مع كانط، لم يعرفوا الدولة القومية الملتقّة حول حاكم موحد وقوي. ويعبر هيغل تعبيرا واضحا عن هذا الأمر. في هذا الصدد، غالبا ما يذكر الباحثون ما كتبه هذا الفيلسوف في رسالة موجهة إلى صديقه نياتهامر بتاريخ 13 أكتوبر 1806، في وقت كان قد أتمّ فيه مؤلّفه "فينومينولوجيا الروح": "رأيت الإمبراطور (نابوليون) روح العالم هذه، في برلين يتفقد الأحوال. إنه لإحساس رائع أن يرى المرء شخصا مثل نابوليون في مكان بعينه وهو على صهوة جواده، يسود على العالم". في دراسة تحت عنوان "نابوليون: بطل هيجلي"، يقول نيكولا بروسار:

"ما معنى ذلك من زاوية فلسفة التاريخ؟... أن يُتمّ فيلسوف الحداثة الكبير تحرير "فينومينولوجيا الروح" عشية دخول نابوليون المدينة، هذا الحدث الذي لا يتكرر إلا كل مائة أو ألف سنة، معناه أن الأمر يرتبط، من منظور هيجلي، بطائفة تاريخية، التقى فيها التاريخ السياسي بالفلسفة: أنجز نابوليون على مستوى الفعل السياسي ما حققه هيغل على مستوى الفكر، إذ أدرك نابوليون، فعليا، ذلك المطلق الذي عرضه هيغل معرفيا في "فينومينولوجيا الروح".

ماذا يمكن أن نستنتج من هذه الصورة التي رسمها هيغل؟ في ذلك اليوم، لم يكن على هيغل أن يقرأ الصحف كما كانت عاداته، لأن الحدث التاريخي، ذلك الراهن المطلق في التاريخ، كان يجري أمام أعينه مباشرة. والأكثر من ذلك، رأى هيغل نابوليون وهو يخرج من المدينة لتفقد الأحوال، لكن نابوليون لم ير هيغل. كان هيغل يعرف ما يفعله نابوليون، في حين كان نابوليون يجهل ما كان يعرفه هيغل. ولذلك، كان نابوليون يحقق من حيث لا يدري فلسفة التاريخ الهيكلية. كان نابوليون، باعتباره أداة للمطلق على مسرح العالم، قد صار بطلا للتاريخ الحديث. وأخيرا، إذا كانت حركة نابوليون تقضي بتحيين ملموس للمطلق، فإنها كانت ذات سمة جمالية. ولذلك، كتب هيغل إلى صديقه نياتهامر: "إنه لإحساس رائع أن يرى المرء شخصا مثل نابوليون". لقد كانت حركة نابوليون بالفعل فوق العادة وعجيبة.

عام 1807، بلغ نابوليون أوج قوته. ففي ظرف ثلاث سنوات كان إمبراطور فرنسا قد انتصر على ثلاث قوى أوروبية عظمى: النامسا وبروسيا وروسيا، وأصبح بالتالي سيد أوروبا بدون منازع، إما بطريقة مباشرة أو بواسطة الإمارات التابعة له، تحالفا أو خضوعا.